إ ٢٠٠٢/٣١

أحـــد الشعـانيـن

صباح الأحد ٢٨ نيسان ٢٠٠٢ ترأس سيادة متروبوليت بيروت وتوابعها المطـران الياس عودة قداس أحد الشعانين في كنيسة مار الياس في المصيطبة وألقى بعد قراءة الفصـل الإنجيلي العظة التالية:

«باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد آمين.

يا أحبة، اليوم نعيِّد لدخول الرب إلى أورشليم. يدخلها لكي يرتفع على الصليب ويُنقذ الإنسان. وقد أتاها بتواضعٍ وفرحٍ لأنه باختياره شاء أن يُعيد آدم ثانيةً إلى أصله الإلهي. لـم يأتِ راكباً على فرسٍ كما كانوا ينتظرونه، ملكاً أرضياً مع كل ما تستدعي الملوكية، ولكنه أتى ليُعيد الإنسان، من خلال صورته، صورة يسوع الآتي إنساناً متواضعاً، محبّاً، وديعـاً، إلـى الفردوس الإلهي. وبهذه الصفات يجتمع الواحد مع الآخر، يغمره، يحتضنه، يلتقي به ويفرح.

اليوم تبتدئ آلام السيد. فَرَحُهُ اختياره الطاعة حتى الموت كإنسان. سيتألم كما يتألم كل إنسانٍ ويعيش عمقنا وحياتنا التي تُقهر كل يوم بالظلم، بالقمع، بالوحشية، بكل آثـار الحقـد. سيعيش حياتنا حتى نعيش نحن حياته ونُستعاد. ولكننا يا أحبة، عندما نقرأ ما كُتب عن هـذا العيد، كيف دخل يسوع أورشليم والأطفال والجموع تستقبله مهللةً بمجيئه، لا يمكننا أن نفرح كلياً اليوم ونحن نحترق بلهيب النار المشتعلة قربنا، والتي تُحرق أيضـاً أحباءنـا وإخوتنـا وأخواتنا.

اليوم، فيما أتأمل ما يحدث في الكون، لا يمكنني إلاّ أن أخرّ ساجداً، سائلاً الرب كمـا يسأل كلُّ إنسانٍ اللهَ، كما يسأل كل إنسانٍ يجد في الله ملجأً ومخلِّصاً، أن يغمر الكون برحمتـه ويُحلّ سلامَه في العالم أجمع وفي فلسطين مهد طفولته، وأن يشرقَ نورَ حكمته فـي قلـوب الطغاة والمستبدين كي يفقهوا عِظم جرائمهم والعنف الذي يمارسونه حولهم، علّهم يتوبون. كما

أسأله أن يحتضن كل روح بريء ومقهور ومظلوم ومستَضْعَف لأنهم في كنفه وحده يجــدون العزاء.

يخرّ الإنسان اليوم أمام الله والحزن يملأ نفسه لأنه يرى الشر حيثما التفت، لكنه يبقى في رحمة الله، يبقى معلَّقاً بالله. أليست مفارقة ان الإنسان، عندما ينسى آلامه، قلّما يفكر بآلام الآخرين؟ كيف لنا أن نفرح في العمق، أن نفرح حقاً وأطفالٌ ونساءٌ وشيوخٌ يلتهمهم فم الوحش ويحطّم منهم العظام؟ الإنسان اليوم، في فلسطين، الغيم في عينيه والسراب في البعيد البعيــد. هذا الإنسان الذي ندرك آلامه في أحشائنا نحن الذين عشنا حرباً طويلةً، والحروب لا تختلف، والموت موتٌ حيثما كان، والألم ألم، يحمل المتاعب والآلام على عاتقه، بل يحمل على أكتافه تاريخاً لا ندري ما هو. يحمل تاريخاً نجترّه ولا يُساوي لقمةً تُغذي. هذا المتألم يداه فارغتان. يُطارد الراحة فلا يجدها، يطارد الرجاء ولولا علاقة له بالله يلتهمه اليأس. يصــارع غــولاً تُغذيه سياسات الكون.

يا أحبة، نحن من أمةٍ، من أرضٍ لا تعرف إلا الوحشة والوحدة. لا أقصد الاتحاد بل الوحدة أي الوحشة. قال أحدهم وحيدون، نحن وحيدون حتى الثمالة. ألا تطاردنا الوحدة فــي كل خبرةٍ أليمة؟ وفي كل امتحانٍ وفي كل معاناة؟ نعم وحيدون، نحن وحيدون حتى الثمالــة لأننا ما عرفنا المحبَّة. كلٌّ يلهث خلف مصالحه وما يجمع الأمة تسميةٌ: العرب، كلمة فارغــة لا تعني شيئاً إلا إذا تجسدت فعلاً ومعاناة.

الموسم اليوم ليس كسائر الأيام لأن ربنا يسوع يدخل إلى أورشليم وحيــداً، يلتحــف وحدتنا ووحشتنا وما من طفلٍ يصرخ أو إمرأةٍ تهزج أوغصنٍ يرتفع. لا صــراخ الأطفــال يستقبله ولا أغصان النخيل والزيتون وأهازيج النساء. يدخل مفتشاً عن الإنسان فلا يعرف له عنواناً. في بلادنا لا عنوان للإنسان، لا مكان. يرى البراءة مقتولةً برصاص الحقــد والظلــم والوحشية. في فلسطين أراد الرب أن يكلِّم أحداً بلغةٍ عربيةٍ أو أجنبية، لكنهم كلهم نيــام. أراد يسوع أن يكلِّم أحداً عن فلسطين، في فلسطين، بلغةٍ عربيةٍ أو أجنبيةٍ، فلــم يجــد إنســاناً ولا ضميراً، كلهم نيام، وأنتم تعرفون على ماذا ينامون. لا أحد يسمع، ولا حيــاة لمــن ينــادي. وجدهم موتى، لا كموتى التراب، وجدهم بلا لون ولا رائحة والميت لونه أغبر، أما هم فــبلا لونٍ ولا رائحة.

أتى على جحشٍ صغير ليصل إلى الصغار والصغار ماتوا وأضــحوا بــلا حــراك. والكبار مختبئون خلف الطائرات والدبابات وخلف البندقية أو في القصور وفوق النفط وكلهــم نيام، ما عدا قلوب في صدورٍ بين الركام تنبض على الرجاء، علّها تُرفع فوق الركام، علّهــا تجد صوتاً تأنس إليه، أو يداً أو من ينظر تحت الأنقاض عيناً مفتوحةً، لكنهم كلهم نيام. أمــا أنا، في بلدي الذي ذاق مثل هذه الأوجاع فأصرخ، أستنهض الضمير والقلب للإرتفاع إلى الله

وحده لكي يُعين إخوتي هؤلاء ويُعينني لكي أصبح إنساناً يشعر، يتعاطف، يحبّ، يلتصق بأخيه الإنسان. أتكلّم عن القلب وقلّما أحب أن أتكلَّم عن الفم لأنه لا ينطق، كما قال أحد الشعراء، إلا كلمات، كلمات، كلمات لا تعني شيئاً. الكلمات قد تعزّي ولكنها فارغةٌ لأنها لا تعزي أحداً سوى قائلها إن لم تحمل القلبَ المجروحَ في طياتها. نسمع الأخبار، مسؤولون كبار، في هذه الدولة وفي تلك، قريبة أو بعيدة، يتفزلكون بالكلام والكل يعرف مقاصدهم. كلهم جالسٌ والناس تحت الركام.

أصلّي إلى ربّي وأدعوه أن يأتي إلى بلدي، ربما يجد أطفالاً ونساءً يصرخون ويهلّلون ويفرحون، ولكني أخاف عليه من الكبار لأنه إذا رأى النزاع والخصام والمماحكات على صغائر الأمور والبلد يهلك، يخجل و يبكي، يدمع كما دمع على لعازر، ولا أريد لربي أن يخجل ويبكي. نتلهى والجرائد ملأى بالكلمات، الكلمات، الكلمات الفارغة.

لا تيأسوا يا أحبتي، نحن نؤمن بإلهٍ قام على العدم وأخرج الوجود من العدم، قام على الموت وأقام الإنسان. فلو شعرنا بالموت في نفوسنا وفي قلوبنا وفي عيوننا، عزاؤنا اننا سنجد نوراً ينبثق من قبرٍ مفتوح كان فيه يسوع. هكذا قال بولس لأهل فيليبي: «افرحوا في الرب كل حينٍ وأقول لكم افرحوا» (في ٤:٤)، لأن الفرح يعمل في المحبَّة والمحبة وحدها تبني. اليائس لا يرى إلاّ نفسه ولكن الفَرِحَ يعرف الله ويعرف أنه قريب. سأدعو ربي إلى بلدي علّه يطهِّر ما لم يجرؤ أحد أن يطهّره. نعم سأدعو ربي إلى بلدي.

البارحة كنا نقرأ إنجيل لعازر الذي أقامه الرب يسوع من القبر بعد أربعةِ أيام، وبعد أن قالت أختاه مرتا ومريم ليسوع لو كنتَ ههنا لم يمت أخونا. اليوم أنا أقول لو كان ربي في هذا البلد لما حصل ما يحصل فيه. سأدعوه لأني به سأتحدى هذا المسؤول وذاك أن يصلح ما يجب إصلاحه ويطهّر ما يجب تطهيره، أن يتكلَّم الصامت وأن يُفضح الشرير. لقد قلت لمسؤولٍ قد لا تستطيع فعل أي شيء لكن يجب ألا نصمت عن الشر أو الأذى. الكلُّ يعلم ولكن لا أحد يجرؤ على الكلام ولا أريد أن أصنّف الناس. هناك من يؤذي البلد بفعله وهناك من يؤذي البلد بصمته.

فيا أحبة، اليوم معكم سأدعو ربي إلى بيتكم وإلى بيتنا وإلى بلدنا لكي يطهِّر الضمائر والأيدي الوسخة والجيوب المنتفخة والقلوب الماكرة، ويطهِّر بلدي ويعطي شيئاً من الشجاعة والجرأة للمسؤول ليقول ما يجب أن يقول. باركم الرب وجعل في قلوبكم سلامه وحياته وجعلكم أوفياء متكلِّمين بالحق في وقتٍ مناسب وغير مناسب، كما أرشد بولس الرسول ابنه تيموثاوس. الحق لا يُطمر ولا يُقبر، الحق قائمٌ في الحق الذي هو الله، آمين».